I. فى الثقافة العلمية

* خواطر تراثية ومعاصرة عن الثقافة العلمية الحائرة!!
* البحث عن أحفاد «عطا الله»!!!
* ملاحظات منهجية حول الثقافة العلمية
* نحو خريطة معرفية للترجمة العلمية
* الفهم المجتمعى للعلم

obeikandl.com

obeikandl.com

خواطر تراثية ومعاصرة عن الثقافة العلمية الدائرة !!

يعد مصطلح «الثقافة العلمية Scientific Literacy» من المصطلحات الحديثة نسبيًا، حيث ذكره شاموس لأول مرة فى خمسينات القرن العشرين (١٩٥٨). لكن التاريخ البشرى حفل بالعديد من الأعمال والمحاولات التى تتفق مع دلالات مفهومه، قبل وبعد القرن السابع عشر الميلادى، الذى اصطلح على أن يؤرخ لظهور ما يعرف بالعلم الحديث، وقد عبرت هذه الأعمال بالطبع عن مستوى «المعارف العلمية» فى زمانها، وغلب عليها الطابع الوصفى والحدسى، ولم يكن التجريب حاضرًا دائمًا، وهذا أمر مفهوم لا يدينها، فقد بذرت بذور العلم والثقافة العلمية، حتي وإن اختلطت فى حينها بالأساطير والخرافة. ولا شك أن دارسى «أنثروبولوجيا العلم» يمكنهم ذكر الكثير فى توضيح ذلك. إننا نجد مثل هذه الأعمال عند الإغريق والهنود والصينيين وغيرهم، ونجد عند العرب والمسلمين – كما سنرى – معالجات أكثر نضجًا وعقلانية تدفعنا إلى أن نتحسر على حالنا!!!

ومع تقدم المعارف العلمية، منذ ظهور العلم الحديث وحتى بزوغ ما يعرف بالثورة العلمية والتكنولوجية فى النصف الثانى من القرن العشرين، تطورت أشكال الثقافة العلمية، التى تحاول تقديم المعارف العلمية وتطبيقاتها للمجتمع. واتضحت معالم «الخيال العلمى» كأحد المجالات الإبداعية للثقافة العلمية، التى تشد انتباه الجميع، والذى تحولت بعض نماذجه إلى أعمال فنية شهيرة فى السينما بالذات. وتأسست «صناعة الإعلام العلمى» فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون، وأخيرًا الإنترنت، واعتدت بعض الدول بتوظيف أدوات الثقافة العلمية فى تطوير وتدريس (تعليم وتعلم) العلوم، كما هو الحال فى مشروع «العلم لكل الأمريكيين»، الذى يستهدف أن يكون كل مواطن أمريكى على ثقافة علمية كافية فى عام ٢٠٦١، عند اقتراب مذنب هالى مرة أخرى من الأرض، حيث بدأ التفكير فى هذا المشروع طويل المدى عند اقترابه لآخر مرة فى ثمانيات القرن العشرين، وازداد الاهتمام بالمتاحف والمتنزهات والحضانات العلمية، التى تشجع صغار المبدعين والمكتشفين والمخترعين.

وكالعادة نسأل: أين نحن من هذا كله؟ ونصيب ونخطئ فى تقديم الإجابات والحلول. بداية، من السهل أن نتفق على ضعف الثقافة العلمية فى واقعنا العربى المعاصر كميًا وكيفيًا، وعلى عظم الفجوة بيننا وبين الدول المتقدمة، بل والكثير من الدول النامية، فى هذا الأمر. إن مجالنا الثقافى والإعلامى يضج بالكثير مما هو غير علمى وغير عقلانى، من قراءة الطالع والنجوم وحكايات العفاريت، إلى الممارسات العلاجية الضارة وغير المقننة باعتبارها طبًا شعبيًا كما يقال. ويمتد الأمر إلى الخلط المعيب بين الدين والعلم، بما يضر الاثنين، لاختلاف المنهج والمصطلحات. وهذه نقطة هامة تستحق التوقف عندها، وبحث العلاقة الصحية السليمة بين مجالين حيويين لا تتكامل الحياة إلا بالاستفادة منهما، فالدين مطلق، يقوم على الأيمان واليقين، والاجتهاد فى تحقيق مقاصده، باعتباره مصدرنا الرئيسى لمنظومة القيم والأخلاقيات التى تحكم علاقتنا وتصلح حياتنا. والعلم نسبى، يتقدم بالتجربة والشك والتخطئة طلبًا لمزيد من التصحيح والتدقيق المستمرين. لقد مكننا الله منه، ودعانا إليه، لنفهم العالم

ونطوعه لصالح البشر ، مسترشدين بما يقدمه الدين من قيم وأخلاقيات (العلم النافع، كما جاء فى دعوات رسولنا ﷺ). هذه العلاقة الصحية كما أراها تجعلنى أتحفظ على بعض الممارسات الأخرى، مع احترامى لأصحابها ونواياهم. فالتوصل إلى حقيقة علمية نسبية فى زمانها ومكانها لا يجعلنى أتسرع فى ذكر ورودها فى القرآن مثلاً، أو أسمى ذلك إعجازًا. هذه الحقيقة قد تتغير، أو يتم تدقيقها. والعلم فى القرآن ليس كعلمنا، إنه «علم معجز» فى إحاطته الشاملة وصحته المطلقة، لأنه كلام الله تبارك وتعالى، الذى لا يأتيه الباطل من أى إتجاه. واسمحوا لى ألا أزيد فى هذه النقطة الحساسة، مكتفيًا بهذا القدر من التلميح دون التصريح.

والحقيقة أن ضعف الثقافة العلمية قد دفع بعضنا إلى استنتاج خاطئ مؤداه أن مجتمعاتنا كارهة ورافضة للعلم، تتحفظ عليه وتتشكك فى قمته. وهذا حكم ظالم تمامًا. إن البسطاء يصفون العلم بالنور «العلم نور» ويوفرون من قوتهم وحاجاتهم الضرورية ما يمكنهم من الإنفاق على تحصيل

أبنائهم للعلم والتعليم. وقد لا يدرك القائلون بكراهية مجتمعاتنا العلم، أن أغلب الممارسات غير العلمية تقدم إلى العامة بشكل مضلل باعتبارها علمًا، حيث يقبلها الناس. وهنا تقع علينا المسئولية العلمية والأخلاقية فى الكشف عما هو علم، وما هو غير ذلك، دون أن نتهم أهلنا بالعداء للعلم أو رفضه. إننى، على العكس من هؤلاء، أرى أن مجتمعاتنا تحب العلم بشكل فطرى وإيمانى عميق، وأن هذه النقطة إيجابية يجب أن نوظفها فى نشر الثقافة العلمية، معرفيًا منهجيًا، والتصدى لما يخالفهما.

ومع الدعوة الملحة إلى الانفتاح على العالم، والبعد عن العزلة فى عصر العولمة، أحتفى دائمًا بالاستفادة من دروس تراثنا الحى، ولحظاته المضيئة. ففى الفترة التى امتدت من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر الميلاديين، قدم علماؤنا ومفكرونا العظام الكثير مما يشهد به الغرب من معارف علمية واسعة، وثقافة علمية جذابة. فبالإضافة إلى ما قدموه فى الفيزياء والفلك والنبات والحيوان والطب والبيئة، تطرقوا إلى

مفاهيم علمية كالتقسيم والتصنيف والتطور. وصاغوا ما يمكن أن نعده خيالاً علميًا مبكرًا فى قصص الحيوان وغيره من الكائنات. بل إن بعض أعمالهم تطرقت إلى وسائل إيضاح لها ما يقابلها اليوم، فى هذا الشأن، أحكى لكم النموذج الذى شرحه عالمنا المدقق د. عبد الحافظ حلمى، ونشره فى حوليات مجمع الخالدين عن إخوان الصفا، مأخوذًا عن إحدى رسائلهم.

فى الرسالة السادسة والعشرين لهذه «النخبة الثقافية العربية» حكاية عن ملك أراد أن يربى أولاده على العلم والحكمة، فبنى لهم قصرًا فى قبة مجلسه «صورة الأفلاك وبين كيفيه دورانها، وأبراج طلوعاتها، وكذلك الكواكب وتحركاتها، وأوضح دلائلها وأحكامها». هكذا وصف إخوان الصفا، فى كلامهم الوارد بين القوسين، للقبة السماوية كما نعرفها اليوم!!! ويستطردون قائلين: «وصور فى صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم، وخطط الجبال والبحار والبرارى والأنهار». ألا يعد ذلك وصفًا مبكرًا

للأطالس؟!!! ثم ينتقل حديثهم إلى صدر المجلس حيث صور «علم الطب والطبائع، وصور النباتات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها، وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها... إلخ». وهذا لعمرى شرح جميل لوسائل الإيضاح عن الكائنات الحية والجماد، بل وبعض التطبيقات. إن المهتمين بالثقافة العلمية يعرفون رائعة «كارل ساجان» عن الكون، ومنهم من شاهد الفيلم الذى تعرضه مكتبة الإسكندرية عن نفس الموضوع، بدءًا من الانفجار العظيم وحتى ظهور الحضارة. إننا نقدم لهم رائعة إخوان الصفا لنؤكد حضورنا المبكر الرائع فى تاريخ الثقافة العلمية، رغم غيابنا الحاضر المعيب.

وقبل أن أترك هذه الخواطر التراثية، التى تستحق الإعجاب والاستيعاب، أشير إلى عناية أجدادنا المجتهدين بالمفاهيم، التى تعد من أهم المسائل التى تدرس فى تاريخ العلم وتاريخ الأفكار. وأخص بالذكر مفهوم التطور، الذى أضافوا إليه الكثير، إن العالم يعترف بأن الجاحظ كان أول من

قدم شرحًا متكاملاً له، ولا ننسى اجتهادات ابن مسكويه وإخوان الصفا وابن خلدون وغيرهم. لقد ذكر درابر، المعاصر لداروين، أن «المحمديين» كما كانوا يطلقون على المسلمين، كانت لهم نظرية متكاملة عن التطور، وأن أعمالهم المترجمة لابد وأن تكون قد أثرت، بشكل مباشر أو غير مباشر، على علماء الغرب. لن أحيل القارئ إلى المراجع العديدة التى تفصل ذلك، وأخرها كتاب جذور الأسلاف (٢٠٠٩)، واكتفى بأن يقرأ ما هو متاح فى الموسوعات الحرة مثل ويكيبيديا، والمواد العديدة على الإنترنت.

والجدير بالذكر، أن أسلافنا نحن قد قدموا هذا المفهوم، الذ تحول إلى علم تقوم عليه دراسة الكائنات الحية، وتطبيقات لا غنى عنها، بأسلوب ثقافى جذاب، يعد نموذجًا للثقافة العلمية الملائمة لعصرها، بزخر بالمعارف العلمية المتاحة، التي تحكم عليها فى سياقها، ولا يخلو من الشعر والطرائف والقصص التى تشد انتباه المتلقين.

وإذ نذكر الحضور المبكر والغياب الحاضر للثقافة

العلمية، فلابد وأن لكل أسبابه، التي تستحق المعالجة المستفيضة فى غير هذا الموضع. لكننا يمكن أن نوجز الأمر بتأكيد دور الاجتهاد والإبداع إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، الذى أخذه الغرب عنا واستفاد به فى نهضته، وغروبها المتزايد عندنا، بما أدى إلى ما نحن فيه من غياب. إن الباحث المنصف يجد فى حضارتنا كل العناصر اللازمة، التى تسمح بثقافة علمية إنسانية راقية، من اقتناع بوحدة البشر واستيعاب لتنوعهم، ودعوه للعلم والنظر فى الكون والأرض ومخلوقات الله، وأنفسنا على قمتها، والتمسك الأخلاقى بالعلم الذى ينفع الناس... إلخ. ولا يكفى أن نكرر هذه «الولولة الحضارية» على ماضينا، لكننا يجب أن نعرف كيف نوظفها لبناء مستقبلنا، منفتحين على العالم كما فعل سلفنا العظيم. لقد أخذوا عن الإغريق وغيرهم، وأضافوا واجتهدوا وطوروا، وأفادوا غيرهم. وعلينا أن نستوعب تجربتهم، دون أن يعنى ذلك دعوة إلى «ماضوية» لا طائل من ورائها. فهذه الاستفادة الحضارية المطلوبة يجب أن تتم بأساليب وأدوات ومفاهيم جديدة، تتناسب مع مقتضيات

العصر ... عصر العولمة، التى جاءت لتبقى، وإن كنا نتمنى أن نشارك باجتهادنا فى رسم ملامحها المستقبلية.

وأظننا لا نبالغ إذا ما ذكرنا أن الحاجة الملحة إلى زيادة علمية وعقلانية مجتمعاتنا العربية تقتضى تشجيع كل الجهود الرامية إلى نشر الثقافة العلمية بكل الوسائل، بما فى ذلك تطوير تدريس العلوم (تعليمًا وتعلمًا)، وإحداث طفرة فى الإعلام العلمى، مع تنقية الإعلام عمومًا، والتليفزيون خصوصًا، من الشوائب غير العلمية. وفى سبيل ذلك، علينا الاستفادة من التجارب العلمية، وتوضيح العلاقة السليمة، التى تقوم على التكامل لا الخلط، بين الدين والعلم، وتأكيد تعامل دعاة التنوير فى حياتنا الثقافية مع العلم باعتباره «تنوير التنوير».

ولا بأس من أن نوضح أن مرجعيتنا فى ذلك ليست غربية خالصة، لكنها نابعة من تراثنا، إن المرجعية الغربية فى تجربة التنوير لا يمكن ولا يصح تجاوزها، فهذا ما لا يقول به عاقل. لكن التجربة تعلمنا أيضًا، هى والمنهج العلمى الذى

تقوم عليه، أن «النقل الكمى» لاتجاهات التقدم، الذى لا يتعامل مع «السياق الثقافى»، ولا يحتفى به، يكون قليل الأثر. إننا ندعو إلى «النقل الكيفى» لهذه الاتجاهات، وتوظيفها فى الالتحام بسياقنا الثقافى، ومحاولة تطويره ومواجهة سلبياته. هذا هو السبيل الأمثل لأحداث «نقلة نوعية» فى كل المجالات التى نحتاجها، بما فى ذلك مجال الثقافة العلمية.

ختامًا، أود إحقاقًا للحق، أن أذكر بعض الجهود التى تمت لتطوير الثقافة العلمية فى الوطن العربى، لقد نشأت العديد من اللجان المختصة بذلك فى دول المنطقة. ونشرت «المنظمة الغربية للتربية والثقافة والعلوم» إستراتيجية لم تفعل حتى الآن، ونظمت «مجلة العربى» فى نهاية عام ٢٠٠٥ مؤتمرًا كبيرًا، شارك فيه عدد من المهتمين. وتحاول العديد من المطبوعات الخاصة بالثقافة العلمية الاستمرار، مع تفاوت المستوى. وكقارئ وناقد، لا أجد حرجًا فى أن أذكر أن من أفضلها مجلة «علوم وتكنولوجيا» التي يصدرها معهد الكويت للأبحاث العلمية، والملحق العلمى المتميز لمجلة

العربى. وهنالك اهتمام نسبى بترجمة الأعمال العلمية المبسطة (المركز القومى للترجمة فى مصر نموذجًا)، وحضور يجب أن يزيد للمتاحف والمراكز الاستكشافية العلمية. لكن الطريق مازال طويلاً، ويحتاج إلى دراسات جادة لتحليل الفجوة بين الواقع والمأمول، وقياس أثر هذه الجهود والتنسيق بينها. والأهم من هذا كله «ضبط جودة» ما يقدم، كخطوة كعملية لازمة، تساعد على أن تقوم «العملة الجيدة» بطرد «العملة الرديئة»، وليس العكس.

البحث عن أحفاد «عطا الله»!!!

فى أكتوبر ١٩٢٠، أضاف القارئ عطا الله محمد إسماعيل كتابًا إلى مكتبته وحرص على تسجيل هذا التاريخ بخط جميل على غلافه الداخلى، وبعد عشرات السنين اشترى لى تلميذى الدكتور علاء سعد الدين «نسخة عطا الله» من أحد باعة الكتب القديمة، لأنه يعرف حبى المتطرف للكتب القديمة جدًا والحديثة جدًا، فى أن واحد. فالكتب القديمة تعرفنا بالأساس الذى بنيت معارفنا العلمية عليه، والحديثة توضح لنا إلى أى مدى ارتفع البنيان. أن الفهم الأفضل لحاضر العلم ومستقبله يقوم على استيعاب تاريخه وتطور مفاهيمه وأدواته. ورغم أهمية هذا الموضوع، ودعوتى إلى العناية به ثقافيًا وتعليميًا، إلا أننى فى هذا المقال أود أن نهتم «بنموذج عطا الله» هذا القارئ الناقد والمدقق للكتب العلمية الجادة، فهو نموذج يستحق الإشادة والاستعادة لو صح التعبير!!!

أن عطا الله، الذى يعرف نفسه بأنه من مدرسة الحقوق، عاش فى «أيام» محمد عبده وطه حسين والعقاد وسلامة

موسى وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين وإسماعيل مظهر، بكل ألوان الطيف الذى يمثلونه، لقد تحدثنا عنهم كثيرًا، وهم يستحقون ذلك. لكننا نكرر أننا نتحدث اليوم عن القارئ الذى عاش فى عصرهم. وأظن أنه لا يقل أهمية عنهم فى تشكيل المناخ الثقافى للأمة والمجتمع. أنه يمثل «الطلب» المحترم على الثقافة الراقية. لقد استشعر حاجته إلى أن يقرأ عن العلم، وكان من بين ما اختاره كتابًا ألفه أحد أساطينه، أعنى به كارل بيرسون مؤسس علم الإحصاء الرياضى. هذا الكتاب الذى أسماه بيروسون «أجرومية العلم» يناقش طبيعة العلم وعلاقته بالفرد والمجتمع، ويشرح منهجه ومجالاته، ومعنى الحقائق والقوانين العلمية والسببية والاحتمالات، وغير ذلك. ويتطرق إلى ما أنجزه العلم فى زمانه، سواء فى دراسة ظواهر الفيزياء أو علم الحياة ... وقد صدرت منه ثلاث طبعات (١٨٩٢، ١٩٠٠، ١٩١١)، وأعيد طبعها مرات عديدة، وبين يدى نسخة عطا الله من طبعة ١٩١١، وهوامشه التى كتبها موضحًا المراجع التى سيسعى إلى

الحصول عليها للاستزادة، ومن بينها كتاب آخر لبيروسون نفسه أبدى إعجابه به لأنه يتحدث عن أخلاقيات التفكير الحر، وآخر عن تطور العقل، وثالث عن علاقة دراسة علم الوراثة والانتخاب بعلم الاجتماع. ألا يدفعنا ذلك إلى أن نتساءل: أين أحفاد عطا الله؟!!

أن هذا التساؤل عن أحفاد عطا الله يدفعنا إلى تساؤل آخر عن المناخ الذى يدعم ظهورهم، وعن «العرض والطلب السائدين فى أيامهم». الكتب الأجنبية مرتفعة الثمن وغير متاحة بالقدر الكافى فى المكتبات العامة، والكتب العلمية العربية «سداح مداح» غير دقيقة وغير محكمة. والحال أفضل نسبيًا فيما يخص «بعض» الكتب المترجمة وأكرر كلمة «بعض» بإصرار، والإنترنت هى الأفضل، لمن يستطيع الفرز والانتقاء. هذا ما يستشعره من تقابلهم من أحفاد عطا الله. أنهم موجودون، لكنهم محبطون، أن حسهم النقدى يجعلهم يستبعدون القنوات التلفزيونية العربية، الأرضية منها والفضائية، بشكل عام. فهى تقدم الكثير من البرامج التى

تنشر الخرافة واللاعقلانية، وتمتلئ بالرغى واللغو والتسطيح والأخطاء العلمية. وعندما تناقش قضية علمية نقوم «بتبطيطها» لا تبسيطها. ويقدمون الأمثلة الدالة على ذلك: مذيع يعلن عن كشف علمى هام بعد الفاصل، ويأتى المتخصص بصورة قديمة لحيوان منوى يتحرك، ليؤكد أنه كائن حى وليس خلية حية (مصيبة علمية).. ويبنى على ذلك آراء ما أنزل الله بها من سلطان. وكتاب يتحدث عن ثورة الجينات ويصدر ضمن سلسلة شهيرة، فى فصله الأول ثلاثة أرقام شديدة التباين لعدد الجينات فى الإنسان (مصيبة أخرى). أرقام مغلوطة توحى بوجود البشر العماليق والبشر الصعاليك. ولا علاقة لها بما قاله العلم. ثم الخطأ الشائع فى التعامل مع العلماء ككائنات غريبة عنا، جاءت من كوكب العلم البعيد. يجلس المذيع أو المذيعة أمامهم بانبهار وعدم فهم، ويمطرهم بالأسئلة العبيطة. شكرًا يا أحفاد عطا الله، لقد وضعتم أيديكم على الداء، ومن حقكم علينا أن نبحث عن الدواء.

إن الدواء الذى اقترحه يؤجل الأهداف متوسطة أو بعيدة المدى، التى تتعلق بصياغة إستراتيجية طموحة للثقافة العلمية، تتضافر المؤسسات التعليمية والعلمية والإعلامية لتنفيذها. أن هذه الإستراتيجية شديدة الأهمية، لكننى أتمنى بشكل واقعى التركيز فى المدى القصير على أمر واحد، يتمثل فى ضبط الجودة. أن حالة الثقافة العلمية عندنا لا ترضى أحدًا، سواء من حيث الكم أو الكيف. ولعل مطالبة الناشرين بتحكيم ما يعتزمون نشره من كتب علمية، ومراجعة ما يترجم منها، والإعداد الجيد المدعوم بالاستشارة العلمية للمواد التلفزيونية التى تدعى مناقشة العلم والعلماء، ووجود مرصد لكشف اللاعقلانية والخرافة فى برامج الطالع وقراءة الكف وتفسير الأحلام، واللاعلمية فى الدعوة إلى بعض الممارسات الضارة بالصحة بعيدًا عن الضبط والتقنين، كل ذلك يعد خطوة أساسية منهجية لتهيئة المناخ لصياغة الإستراتيجية المنشودة وتفعيلها.

ومن المهم أن يصاحب ذلك تشجيع الشباب على الترجمة

والتأليف فى المجالات العلمية المختلفة، وتحفيزهم بالمسابقات والمكافآت المجزية، حتى يصير لدينا كوادر جديدة قادرة على العطاء، أن ثقافتنا تستحق أن «نعطيها» هذا الدواء، الذى يجعل العلم جزءًا لا يتجزأ من نسيجها. أننا فى حاجة إلى أن يكون مجتمعنا أكثر علمية وعقلانية واستنارة، ثلاث كلمات أكررها بلا مثل، «وفى هذا فليتنافس المتنافسون».

onekandl.com

ملاحظات منهجية حول الثقافة العلمية

أسعد كثيرًا بالاهتمام بالثقافة العلمية فى مختلف أقطار الوطن العربى هذه السعادة تنبع من أسباب موضوعية، وليست عاطفية أو انفعالية. فنحن فى حاجة فعلاً إلى أن تكون ثقافة العلم والتكنولوجيا مكونًا واضحًا فى نسيجنا الثقافى، وأن نعمل على نشر الوعى بالمنهج العلمى واستيعاب منجزات العلم ودورها فى تشكيل العالم وموازين القوى فيه وأن يمتد ذلك إلى دعم الجمود المخلصة لعودة العطاء العلمى المتميز لأستنا.

وكما أكرر دائمًا، لن يتم هذا الأمر إلا بزيادة العناية بالجماعة العلمية والعمل على تنمية قدراتها، حتى تتمكن بدورها من تنمية قدرات مجتمعاتها.

وحيث يتم الحوار حول هذه القضية بأسلوب جاد، عمدت فى مطلع العام الميلادى ٢٠٠٧ إلى نشر دراسة حول «مستقبل الثقافة العلمية فى مصر». مؤكدًا فيها على عناصر التشابه بين الواقع المصرى والعربى. وداعيًا إلى تعاون المهتمين

فى العالم العربى لإحداث نقلة نوعية فى هذا المجال. وقد تمت مناقشة الدراسة المذكورة فى مكتبة الإسكندرية وأحد المراكز الثقافية المتميزة فى القاهرة (ساقية الصاوى) وإحدى الجمعيات الأهلية العلمية (جمعية تحوتى). كما فرحت بعزم الأخوة فى مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية على صياغة إستراتيجية للثقافة العلمية بالمملكة. وأود فى المقال الحالى أن أذكر الملاحظات المنهجية التالية:

* إن كل ما يتعلق بالتطوير الثقافى يجب أن يجمع بين أمرين: الانطلاق من السياق والانفتاح على تجارب الآخرين ويدعونى إلى أن أورد هذه الملاحظة أن البعض يتبنى ويدعو إلى استيراد ثقافة العلم بطريقة «تسليم المفتاح» من الآخرين. ويستند فى ذلك إلى وجود بعض الممارسات الخاطئة فى مجال الطب والصحة بالذات، متناسيًا أنها تقدم للناس ويقبلون عليها باعتبارها ممارسات علمية. ويعطون مثالاً على ذلك استخدام الأعشاب بطريقة غير مقننة أو مدروسة.

* إننى أؤكد أن ثقافتنا العربية الإسلامية تحمل أكبر

دعوة عرفتها البشرية للعلم، وأن أبناءها لديهم (احترام فطرى/ إيمانى) للعلم والعلماء، وأن شيوع الممارسات اللاعلمية بسبب الأمية أو الظروف الاقتصادية يستغل هذا الاحترام. وعلى الثقافة العلمية الجادة أن تكشف هذا الزيف دون أن تدين السياق، وهذا لا يتنافى – كما ذكرنا – مع الاستفادة القصوى من تجارب الآخرين وأدواتهم المتطورة فى نشر الثقافة العلمية من خلال التعليم والإعلام.

* الملاحظة الثانية تتعلق بمفهوم الثقافة العلمية التى نود تقديمها للمجتمع: إن الاتفاق على هذا المفهوم ليس بسيطًا كما يتصور البعض. فهنالك من يفضل أن يستغرق فى تفاصيل المنجزات العلمية والتكنولوجية بشكل يصعب تتبعه على المتلقى العام، الذى نعرفه بأنه المتعلم غير المتخصص الراغب فى استيعاب مغزى هذه المنجزات، ليكون أكثر فهمًا ووعيًا بالعالم الذى نعيش فيه. وبدور العلم والتكنولوجيا في تشكيل وحل مشاكله. بما فى ذلك المشاكل التى تنجم عن التوظيف الخاطئ للمنجزات المذكورة كما هو الحال بالنسبة

للتلوث وأسلحة الدمار الشامل وبعض التطبيقات «المارقة» للوراثة والبيولوجيا، كرغبة البعض فى استنساخ البشر.

وهناك فريق آخر يركز على التوعية بالعلم ومنهجه باعتبارهما من أهم أدوات التقدم. ويدعو إلى تحفيز دعمها وتوظيفها فى المجتمع.

إن المفهوم الذى أرجوا أن نتبناه يقوم على التوازن بين «الحديث فى العلم» الذى يميل إليه الفريق الأول، و «الحديث عن العلم» الذى يميل إليه الفريق الثانى. هذا التوازن يتمثل فى تقديم ثقافة علمية تدعو إلى تقدير العلم ومنهجه وأهميتها فى فكرنا وفعلنا، مع التعريف المستمر بمنجزات العلم والتكنولوجيا. والقراءة النقدية والأخلاقية لآفاق تطبيقاتها فى حياتنا. ومن المفيد أن يصاحب ذلك العمل على زيادة الوعى بضرورة دعم المؤسسات العلمية والتكنولوجية الوطنية، وتنمية طاقاتها وتوظيفها، وإلقاء الضوء على جهودها وإثابتها عنها. فمع الدعوة إلى الانفتاح على المشهد العالمى للعلم، يجب أن تساعد الثقافة العلمية على «توطين العلم»، وتأكيد الدور

التاريخى للعرب والمسلمين فى مسيرته، والتأكيد على أهمية العودة إلى العطاء العلمى، دون الاقتصار على اعتبار العلم والتكنولوجيا «بضاعة مستوردة»!!

آخر الملاحظات تتعلق بالجودة فى الشكل والمضمون، هذا الأمر يستلزم شجاعة «النقد الذاتى» علينا أن نراجع أنفسنا، ونسأل ونجيب بأمانة.

كيف يقدم ويشرح العلم التكنولوجيا فى مؤسساتنا التعليمية والإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية؟ هل يقدم ذلك فى مدارسنا وجامعاتنا بالشكل الذى ينتج مجتمعًا مستوعبًا للعلم؟ وتكون من بين مخرجاته من العلماء المتميزين؟ وإذا ما قدمت وسائل الإعلام مشكورة مساحة ضئيلة للثقافة العلمية هل نقدمها بالشكل الجذاب والمضمون الواعى؟ أم أن الثقافة العلمية تعانى إعلاميًا من مشكلتى الكم والكيف معًا؟ وهل يكفى، كما يحدث فى كثير من الأحيان، أن نقدم تعليقات منبهرة لمنجزات الآخرين؟

علينا ن نقوم بموضوعية وشجاعة «بتحليل الفجوة»

بيننا وبين غيرنا، تعليميًا وإعلاميًا، والعمل على تجسيدها مستنيرين بتجاربهم وخبراتهم.

إننى أدعو إلى الاستفادة من ثلاث مبادرات عالمية: أمريكية وهندية وصينية؛ ففى أمريكا يتم التركيز على التعليم قبل الجامعى فى مبادرة سُميّت «العلم لكل الأمريكيين» ولها امتدادات فى التعليم العالى والإعلام والثقافة، وفى الهند مبادرة لبناء استراتيجية الثقافة العلمية على أساس السياق المجتمعى. أما الصين فقد بدأت مبادرتها فى عام ٢٠٠٨م، وتُقدم على أساس الوصول إلى المستوى الغربى فى الثقافة العلمية عبر مراحل مخططة ومدروسة.

وإذا ما اقتنعنا بهذه الملاحظات أو المنطلقات التى تتعلق بالثقافة العلمية بالذات، والاتفاق على المفهوم والحرص على الجودة كمًا وكيفًا، علينا أن نستعين بالله ونبدأ فى تنظيم الجهود وصياغة الاستراتيجيات ورسم السياسات. ومع الاستفادة من تجارب الثقافات الأخرى، سيكون مفيدًا أن نعتبر انتماءنا إلى الثقافة العربية منطلقًا للتعاون بين الدول العربية فى إحداث «نقلة نوعية» فى هذا المجال.

نحو خريطة معرفية للترجمة العلمية

مع احتفاء المركز القومى للترجمة بتضمين أكبر عدد ممكن من العناوين الحديثة فى المجالات المختلفة للعلوم والتكنولوجيا، وتعظيمًا للعائد المنتظر من هذا الاهتمام المشكور، اقترحت فى أول اجتماعات اللجنة الاستشارية الخاصة بالعلوم والتكنولوجيا أن يتم العمل فى إطار خريطة معرفية متكاملة، يتم فى ضوئها تحديد الأولويات والاختيارات.

إن الطابع البانورامى والتفصيلى للخريطة المذكورة يمكننا مما يلى :

* تحليل الفجوة، بالتعرف على المجالات التى تعانى من نقص ملحوظ فى العناوين المترجمة بشكل عام، والحديث منها بشكل خاص.

* البحث عن المترجمين المتخصصين، والمتميزين فى المجالات المعنية ودعوتهم للمشاركة، وفى حالة عدم

توفرهم، تشجيع المتخصصين ومعاونتهم على التوجه للترجمة العلمية وتنمية مهاراتهم فيها.

* تحديث وتطوير العناوين المتوفرة فى بعض المجالات، مع الحرص على التنوع، وتغطية الاتجاهات الجديدة والبازغة، ذات البعد المستقبلى الواضح.

* الاهتمام بوحدة المعرفة، والربط بين العلوم الطبيعية والإنسانية والإبداع، والحرص على ترجمة العناوين التى تعكس الاتجاه نحو التخصصات البينية ومتعددة وعابرة المجالات.

ولا شك أن هذه المقاربة، التى نرجو أن تهتم المؤسسات العلمية والتعليمية والإعلامية بمخرجاتها، ستساعد فى زيادة علمية الجماعة الثقافية، والمجتمع الذى تسهم فى تشكيل نظرته إلى وطنه والعالم الذى يعيش فيه.

الخريطة المعرفية للترجمة العلمية

المجالات العامة دراسات العلم والتكنولوجيا	الثقافة العلمية	الثقافة التكنولوجية	المجالات الإبداعية	المجالات التكاملية الجديدة والبازغة
• فلسفة	• الرياضيات	• العلوم التطبيقية	• العلم كعملية إبداعية	• وحدة المعرفة (العلاقة بين العلوم الطبيعية والعلم الاجتماعي والإبداع)
• تاريخ	• الكون والفضاء	– الطب والدواء	• العلم والأدب	• اندماج الثورات العلمية والتكنولوجية (المعلوماتية والاتصالات – الحيوية – النانو تكنولوجيا والمواد الجديدة)
• سوسيولجيا	• الفيزياء	– الزراعة والغذاء	• العلم والفن	• الدراسات المستقبلية (التطور العلمي والتكنولوجي ومستقبل الإنسان)
• أنثروبولوجيا	• الكيمياء	– الصناعة	• الخيال العلمي	
• اقتصاديات	• البيولوجيا	– الطاقة	• الصناعات الإبداعية في مجالات العلم والتكنولوجيا	
• تعليم وتعلم	• الايكولوجيا	• التكنولوجيا		
• سياسات	• البيئة والمناخ	– علم التكنولوجيا		
• إعلام	• الاكتشافات العلمية	– المعلومات والاتصالات		
• دراسات ثقافية		– التكنولوجيا الحيوية		
		– النانو تكنولوجيا وعلوم المواد		
		• الابتكار والاختراع		
		• البحث والتطوير		

الفهم المجتمعى للعلم

أحسنت بعض الجامعات البريطانية صنعًا بإنشاء كرسى «للفهم المجتمعى للعلم»، تحرص على أن يشغله عالم يجمع بين إحترام أفراد الجماعة العلمية التى ينتمى إليها من ناحية، والقدرة على التواصل مع القطاعات العريضة من المجتمع التى لا يشتغل أبناؤها بالعلم، وإن كانوا يهتمون به وبمنجزاته، ويدركون الآثار الكبيرة التى تحدثها على نوعية حياة الإنسان.

هذه الفكرة جديرة بأن تحظى بما تستحقه من اهتمام فى معرض جهودنا الحالية لتطوير الجامعات بالدول العربية. إن الحديث عن معايير الجودة المطلوبة يهدف إلى الحصول على الاعتماد الأكاديمى، يركز على التعليم والتعلم والبحث العلمى. ويتطرق إلى خدمة المجتمع بالنسبة لتوظيف العلم فى حل المشكلات التطبيقية. وهذه أمور كلها مهمة لا خلاف حولها، وإن كان شيخ التربويين العرب، الدكتور حامد عمار يدعو منذ سنوات طويلة إلى الاهتمام بالدور التنويرى للجامعة.

إن شيخنا ومعلمنا يعتبر هذا الدور التنويرى وظيفة رابعة للجامعة، وأستئذنه فى أن أضمه إلى الوظيفة الثالثة الخاصة بخدمة المجتمع فعلى الجامعة أن نقدم لمجتمعها «خدمة معرفية» تتعامل مع العلم من منطلق وحدة المعرفة، التى تزيل الحدود بين العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية. وتدفع إلى الإبداع والابتكار لدى الأجيال الجديدة. والبعد المستقبلى لهذه الخدمة يجعلها لا تقل أهمية عن الحلول التطبيقية المطلوبة بإلحاح لمشكلات الصحة والطاقة والزراعة والإسكان... إلخ.

إنها تقدم «ثقافة علمية» متكاملة، قادرة على تشكيل عقول شابة قادرة على التصدى لكل المشكلات فى سياقها المجتمعى، الذى تشعر بالانتماء إليه.

والحقيقة، أن قضية «السياق المجتمعى» تستحق التوقف والتحليل. لقد ذكرت فى مطلع المقال تجربة الجامعات البريطانية، وهى تجربة رائدة بكل المقاييس وطالبت بالاهتمام بالفكرة، لكننى بالنسبة لكل تجارب التقدم لا أومن «بالنقل

الكمى»، لكننى أومن «بالنقل الكيفى» نستفيد من مغزى الفكرة، وندرس أسلوب تطبيقها الملائم لنا، فمن أشهر من شغل كرسى الفهم المجتمعى للعلم البيولوجى «ريتشارد دوكنز»، الذى اختار أن يتخذ مواقف حادة معادية للدين والإيمان، وقد أثارت مواقفه البعض، حيث اتهم بالتجاوز وعدم الموضوعية، وبعد انتهاء مهمته شغل مكانة عالم الرياضيات ماركوس د يسوتوى، الذى اعترف بأنه لا يحب العلم، لكنه يعشق الرياضيات، ويطمح أن يحقق فى تقديم العلم للمجتمع ما أنجزه بالنسبة للرياضيات، من كتب مبسطة وبرامج تلفزيونية. ويتندر كثيرون على ذلك، قائلين إن اختبارات العلوم والرياضيات تثبت تفوق العديد من الدول الآسيوية على كل الدول الغربية، بما فى ذلك بريطانيا. وهذا ما أعنيه بالنقل الكيفى، فالفكرة جيدة: على الجامعات أن تنشر المعرفة العلمية المتكاملة، لكننا لن ننقل الفكرة كميًا، فلن يكون من بيننا من يبحث عن كاره للدين أو كاره للعلم ليشغل كرسى الفهم المجتمعى للعلم، لو فكرنا فى إحتواء جامعاتنا على مثل هذا الكرسى.

واستمرارًا للاحتفاء بالسياق، أؤكد أن الجامعات العربية قد تقدم نموذجًا طيبًا يستفيد منه الآخرون. أقول ذلك بلا مبالغة، وأقرنه ببعض الإشارات المنهجية، لو صح التعبير:

- هناك مراجعات حديثة لتقديم تاريخ العلم بشكل أكثر حيادية وموضوعية، تظهر دور الحضارات المختلفة فى مسيرته، وتخص الحضارة العربية/الإسلامية بالكثير. وكم أشعر بالأسف عندما أجد أن الظلم يقع على حضارتنا من بعض أبنائها، وأعذرنى من ذكر الأسماء. وأظن أننا يجب ألا نكتفى بما فعل الغير، فهذا أمر معيب، لقد نظم المركز الثقافى الفرنسى فى مصر احتفالية استمرت لمدة طويلة، تحت عنوان «عندما تكلم العلم بالعربية». عيب علينا ألا نقدم إسهامًا رصينا فى هذا المجال.

- يتحدث الغرب أيضًا عن «العلم المفقود» الذى ينتج فى العالم الثالث، ولا يظهر بالقدر الكافى لصعوبة نشره فى الدوريات الشهيرة، على الرغم من جودة مستواه، يمكننا الاهتمام به وإظهاره بالشكل اللائق، من خلال النشاط

المقترح للجامعة، إن العقول المهاجرة أثبتت كفاءتها، وهذا أمر طيب، لكن هؤلاء الذين ربطوا مصائرهم بمصائر أوطانهم يستحقون اهتمامًا أكبر، ودعمًا غير محدود، ينميهم ويجعل مجتمعاتهم تنمو بجهودهم.

ومع كثرة الإنجازات العلمية وتطبيقاتها، تزداد الحاجة إلى توجيهها لصالح الإنسان، وتلافى «التطبيقات المارقة» التى تتعارض مع العقائد والأخلاقيات وتضر بالبيئة، وتؤدى إلى الدمار. لقد صارت «أخلاقيات العلم» أمرًا حيويًا، حتى أن «مشروع الجينوم البشرى» مثلاً خصص ٣٪ من ميزانيته للجوانب الأخلاقية والقانونية والاجتماعية لتطبيقاته. ألا يذكرنا ذلك بمفهوم رائع قدمه ديننا الحنيف، وقصرنا فى تقديمه إلى البشر جميعًا: العلم النافع؟!!! لعل جامعاتنا تسهم فى رفع الغبن عن هذا المفهوم الذى يصلح للماضى والحاضر والمستقبل، عندما ننشر المعرفة عن أخلاقيات العلم.

لقد حاولت فيما سبق أن أقدم بعض النماذج «غير الحصرية» لما يمكن أن يعبر عن الدور المعرفى للجامعات

العربية، الذى قد تمتد فائدته إلى كل البشر من دون الاقتصار على الشعوب العربية، وحرصت على تأكيد الاستفادة «الكيفية لا الكمية» من تجربة الجامعات البريطانية. وإن كان «النقد الذاتى» يقتضى أن أذكر تخوفًا أساسيًا تتعرض له جهود التطوير عندنا. إن بعض هذه الجهود تتحول، بشكل أو بآخر، إلى مسألة «بيروقراطية ورقية»، عشرات الاجتماعات ومئات الاستمارات و «دمتم»!! إن هذا الأسلوب لن يؤدى إلى شئ بالنسبة لممارسة الجامعة لدورها المعرفى، إنها مهمة تحتاج إلى فريق عمل متحمس، قادر على التواصل مع الإعلام المقروء والمسموع والمرئى. ومراكز البحث العلمى، والنوادى ومراكز الشباب وغير ذلك من الجهات الحكومية والأهلية، هذا الفريق مطالب بوضع الرؤية والرسالة والاستراتيجية. والتشاور مع كل الجهات لعمل الخطط التنفيذية، والتواصل مع التجارب العالمية، واختيار ما يناسب السياق المجتمعي الخاص، وهذه كلها أبعد ما تكون عن البيروقراطية، ولعل نجاح جامعة عربية واحدة فى القيام بذلك يمثل نموذجًا وحافزًا لغيرها. كم أتمنى أن تقوم بذلك جامعة مصرية!!

دنيا العلم .. سحر الخرافة .. إلى متى ؟

لم يعد الأساس العلمى لكل منجزات النشاط البشرى موضع خلاف من أحد، ولا تستثنى من ذلك الأحداث الرياضية الكبرى، المتمثلة فى الدورات الأوليمبية ومونديال كأس العالم لكرة القدم، وغيرها. إن التحليلات المدققة، التى تصاحب هذه الأحداث، توضح دور التخطيط والإعداد العلميين فى تكسير الأرقام القياسية للأبطال فى الرياضات المختلفة، وتجاوزها من دورة إلى أخرى. كذلك يسهم تقييم التخطيط والإعداد فى توقع فرص الفرق المشاركة فى المونديال. لكن الحماس والانفعال المصاحب لمونديال الساحرة المستديرة كما توصف كرة القدم، واللايقين الذى يصاحب نتائجها، ويتأثرة بصورة أو بأخرى بالحظ وظروف التحكيم، يتركان مساحة لواحدة من أقدم «غوايات» العقل البشرى: اللجوء إلى الخرافة. لقد مارس المجتمع الألمانى، وهو من أكثر المجتمعات علمية وعقلانية، «خرافة بول» الأخطبوط الذى يختار علم الدولة التى تفوز، وضحت

توقعاته كلها!!! هل يعنى ذلك أن العلم ليس لديه ما يقوله فى حالات «اللايقين»؟ بالطبع لا، لقد علمنا دراسة الاحتمالات، وشارك العلماء والفلاسفة الألمان فى ذلك باقتدار.

لماذا يترك الألمان، وكل البشر اقتناعهم بالعلم والاحتمالات جانبًا فى بعض الأحيان، ويركنون إلى الخرافة؟ لماذا لم تختف الخرافة فى عصر العلم، وتوجد فى أكثر المجتمعات علمية؟ هنالك من يرى أنها متضمنة فى بنيتنا العقلية، ويقترح أن لها ميزة تطورية قديمة تتعلق بالخيال، وهو من أهم وأكثر خصائص العقل البشرى خصوبة وثراء. لقد كان للخرافة والأسطورة، بل والسحر، دور لا ينكر فى بذور العلم والمعرفة. هكذا تقول لنا دراسات علم الإنسان أو الإناسة (الأنثروبولوجيا). لكن التفكير العلمى، الذى يرى فيلسوف مثل كليفرد أنه لا يمثل أحد أدوات التقدم، لكنه التقدم نفسه، وضع الخرافة فى حالة «التسلية الفولكلورية» فى المجتمعات التى أخذت بأسباب العلم، ومازالت تحكم عقلية

المجتمعات التي لم تأخذ بها.

وما دام حديثنا قد انطلق من حكاية أخطبوط المونديال، فلا بأس من أن نتطرق إلى متابعتنا الانفعالية والأيديولوجية له، وكأكثر أشكال النقد الذاتي ذاتية، أعترف بأنني تابعت النتائج وتمنيتها وفقًا «لأخطبوطي الأيديولوجي» الخاص، الذي خذلني كثيرًا، تمنيت للجزائر، الفريق العربي الوحيد، حظًا أوفر، ثم انتقلت إلى فرق أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية (فقد تربيت على حب هذه الثلاثية الجنوبية). وعندما خرجت كلها، لم أجد إلا أسبانيا (الأندلس الذي في خاطري) لأتمنى لها الفوز على ألمانيا، ولم يخذلني أخطبوطي في هذه المرة، وأكتب هذه السطور قبل مباراتها مع هولندا، هل سيفوز الأندلس؟ وهل هو «أندلس» بأي صورة من الصور؟ وهل ننسى ما فعلوه بمسلميه بعد السقوط؟ قد لا تكون المتابعة التي ذكرتها، والتي لا شك أن من بيننا من مارسها مثلي، خرافية تمامًا لكنها بالقطع ليست علمية. لكنني أطمئن القارئ بأنها تضع كل ما هو «لا علم» في مكانه الوحيد

الباقى: «التسلية الفولكلورية»، التى تسمح بالمغازلة الثقافية للتاريخ والجغرافيا، دون أن تفقد بوصلة العلم ومنهجه.

قد يتساءل البعض: ما دمنا قد توصلنا إلى المنهج العلمى، وأخذ فى حياة الشعوب المتقدمة هذا الموقع المعتبر، لماذا لا تختفى الخرافة تمامًا؟ ألم ينته دورها؟ واسمحوا لى أن أجيب بسؤال آخر: لماذا لم تختلف الزائدة الدودية فى الإنسان، أو المصران الأعور كما تسمى، رغم أنها ضرورية للحيوانات أكلة الشعب فقط؟ إن التطور، الذى أعود إليه كثيرًا فى تفسير العديد من المسائل، يعلمنا بقاء الأعضاء الأثرية مثل هذه الزائدة، رغم تلاشى أهميتها. قد يكون هذا التشبيه تقريبيًا، غير كامل الدقة، فالخرافة حاضرة فى كل الثقافات، بدرجات مختلفة من الظهور والاحتقان فى بعض الأحيان، وهى فى ذلك تشابه الزائدة الدودية، التى يحدث احتقانها الضرر، ويزداد ضررها بانفجارها، الذى يعادل تفشى الخرافة واللاعقلانية فى المجتمعات البشرية! إن الخرافة لا يمكن أن تختفى فى مجتمع من المجتمعات بقرار أو بقانون، وستظل طويلاً كعضو أثرى

فى الذاكرة البشرية، يذكرنا بأحقاب قديمة فى تاريخ الحضارات، وتبقى آثاره فى بعض الممارسات المسلية الخاصة بالتفاؤل والتشاؤم وقراءة باب الحظ فى الصحف وحكاية الأخطبوط بول، وما إلى ذلك. لكن الضرر والاحتقان يظهران مع تخطى الخرافة لحدود «التسلية الفولكلورية»، لتصل بصاحبها إلى معاداة العلم ومنهجه ومنجزاته، والاقتناع بالعلم الزائف وممارساته (فى مجال الصحة الذات)، وإلغاء العقل فى أمور كالتنجيم والشعوذة والدجل وقراءة الكف وتفسير «همايونى» للأحلام، هل يمكن لمجتمع عقلانى أن يقبل علاجات غير مقننة ويترك الطب، وأن يلجأ إلى التنجيم كبديل للدراسات المستقبلية، والتفسيرات الجاهلة للأحلام كبديل لعلوم الطب النفسى والأعصاب والصحة النفسية؟ ألا يؤدى ذلبك إلى احتقان الخرافة وتضخمها، وينتهى الأمر إلى انفجارها؟!!!

أننى أرجو ألا ينزعج القارئ من كل ما سبق، فمع تأكيدنا عل استمرار الوجود الأثرى للخرافة فى عصر العلم،

جدير بنا أن نتساءل: لماذا صارت أثرية؟ والإجابة المباشرة البسيطة: أن العلم ومنهجه هما اللذان جعلاها كذلك، قولاً واحدًا، لقد أخضع العلم ظاهرة الخرافة للدراسة، وصارت لها نظرياتها النفسية والوظيفة والبنيوية والسياسية، وتعرف على دورها فى الأنثروبولوجيا الثقافية. وواجه ما كانت تمد به الإنسان من «جماليات الوهم» فى تفسيره وفهمه للعالم وظواهره وأحداثه «بجماليات الحقيقة». لم تعد الأرض قائمة على قرن ثور؛ تحدث الزلازل عندما تهتز فوقه، بعد أن فهمنا دور الصفائح التكتونية فى حدوثها، وبعد أن أثبت ماجلان كروية الأرض، وظل البعض حتى وقت قريب ينكرون ذلك، صورناها وهى تسبح فى الفضاء، وأسميناها بالقرية الكونية، وبعد أن اعتقد البعض طويلاً فى مركزية هذه الأرض، وأن كل شئ يدور حولها، حطم كوبرنيكوس وجاليليو هذا الوهم الجميل، وعرفنا الحقيقة الأجمل، فوجودوها على مسافة محددة من الشمس، ودوراتها حولها، مهدًا لظهور الحياة وتفوقها، وصولاً إلى سيد الكائنات.

هكذا يعلمنا العلم ومنهجه كيفية التعامل مع الخرافة، علينا أن نخرجها تمامًا من دائرة فهم العالم والتعامل الموضوعى مع حقائقه، لأن هذه الدائرة لا يصح التعامل فيها إلا بالعلم، والعلم فقط. وبعد ذلك، لتبقى الخرافة لأمد قصير أو طويل «كتسلية فولكلورية» كما ذكرنا، أما الأفراد والمجتمعات، التى تفضل الركون إلى الخرافة بكل تجلياتها الظاهرة والخفية، فلن تنفعها كل أخطبوطات وحيوانات العالم فى توقع تقدمها وإفلاتها من هاوية التخلف. لا بأس من أن نشارك فى التسلية الخاصة باستخدام الحيوانات فى توقع نتائج الرياضات المختلفة. فالأمر لا يقتصر على الأخطبوط، لكن هنالك من استخدم الدجاج والببغاء والأورانج أوتان والخنازير، التى ذبحناها بقرار رأت منظمة الصحة العالمية أنه غير علمى، وذكرت مجلة «سيانس» الشهيرة بذلك فى تقريرها عن عام ٢٠٠٩. نعم، لا بأس من أن «نتسلى» بالخرافة، ولكن حذار أن «نتسلح بها»، فهى سلاح الهزيمة المؤكدة.

أخيرًا، حرصت على أن أنهى هذا المقال حين كتبته قبل

معرفة مدى «صدق» توقعات بول الأخطبوط الألمانى ومانى الببغاء السنغافورى بالنسبة لمباراة ألمانيا وأوروجواى، التى صالح فيها الأخطبوط قومه باختيار ألمانيا، ومباراة النهائى بين أسبانيا وهولندا، التى أغاظ بها قومه باختيار أسبانيا، التى أضاعت عليهم الكأس، وإن كان قد اختارها بعد تردد. لقد حدثت نفس قائلاً: كفى خرافة ... أقصد كفى تسلية، فالعلماء يقولون أن الأخطبوط ينظر إلى اليمين، وينجذب إلى الألوان الزاهية والخطوط العرضية، وهذا ما حكم اختياراته، وعندما أخبرنى أحد الأصدقاء أنه تفرغ تمامًا لمشاهدة المباريات، وهو أمر لا غبار عليه فالرياضة متعة للبشر جميعًا، ذكرته أن صديقنا المشترك أحمد مستجير، رحمه الله، تساءل ذات مرة: متى ينتقل اهتمامنا من الأقدام إلى الرؤوس؟ فاجأنى بقوله أن أجمل أهداف كرة القدم تأتى بالرؤوس!!! حينئذ لم أردد القول المنسوب إلى سعد زغلول «مفيش فايدة»، لكننى سألته: هل توافق على أن نتائج الأربعة الكبار فى المونديال كانت محصلة علم وتخطيط؟ فوافقنى بشدة، وهذا هو المهم، كل مونديال وأنتم وعلمكم أما الأخطبوط فقد مات!!!